فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٦ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

غزوات نيتشه

الغزوة الأولى

حمل نيتشه فى الغزوة الأولى على الكاتب الألمانى « داڤيد ستراوس » وعلى كتابه الذى أخرجه فى درس الدين والمدنية ، والايمان قديمه وحديثه . وقد يحتدم فى نقده للجزء الثانى من الكتاب حيث يعلن « ستراوس » المثل الأعلى الذى يجده خير ما وجده لأبناء الأجيال القادمة . ونيتشه يصب سوط نقده على الرجل الذى لم يعلُ ولم يسفل ، بل وقف وسطاً قانعاً بما آل اليه ، يأخذ من كل علم بحزمة ، ويقنع من كل فن بضمة ، ويعتقد بأنه بلغ الدرجة القصوى من الكمال الانسانى

لايؤمن « ستراوس » بجنة المسيح ، ولا يرتاح لوجود الله ، وإنما يعمل على أن يوحى الى أنصاره أن العالم ما هو إلا رحى ميكانيكية لاتهدأ عن دورانها ، وما على الانسان إلا أن يسلم من الوقوع تحت ثقالها . وهو فى الأخلاق كذلك ، فلا يبشر بمذهب خطر ، ولا يجرؤ على أن يطلب إلى الفرد أن يستخدم مواهبه وان يكون كما تريد نفسه فى الوجود . وإنما يقول هذه الجملة بعد تثبته من اختلاف الناس فى حظوظهم ومواهبهم ، « لاتنس أبداً أيها الانسان أن الآخرين هم أناس مثلك ، لهم نفس حاجاتك وذات مآربك »

يحسب كل ما تجاوز حد الفهم الوسط قبيحاً ، لأن العبقرية تتجلى فى التوسط لا فى التطرف . فالنشيد التاسع « لبيتهوفن » لا يقع موقع الرضا إلا عند من يرون الغريب عبقرية ، والخروج عن المألوف والوزن سمواً . وقد ظن بنفسه أنه قهر « شوبنهاور » ببرهانه الركيك الذى رآه « إذا كان الوجود قبيحاً ، فالعقل الذى أوجده هو قبيح أيضاً ، فالمتشائم إذن هو مفكر قبيح ، والوجود هو حسن وجميل ! . . . »

إن ستراوس فى نظر نيتشه هو مثال العقل المتوسط الذى يدعى معرفة كل شئ ، ويريد أن يفرض سلطته على الوجود . هو مفكر هياب لايبلغ بفكره إلا منتصف الطريق ، ولا يستطيع أن يقصد نهايته . إنه متفائل يغلق عينيه عن الآلام الضرورية للبشر خوفاً ورهبة . وهو مفكر يدعو الناس إلى حياة قانعة خانعة ، وبدلاً من أن يكرم رجال العبقرية يعمل على معاكستهم لأنهم – بزعمه – خالفوا نظامه ومثله الأعلى باختراقهم حدود النبوغ المتوسط

* * *

الغزوة الثانية :

وتصدى نيتشه فى تأملاته الثانية للتاريخ ، وهو لا يجابه رجلاً معلوماً أو طائفة مشهورة ، وإنما ينازل مذهباً حديثاً يهم بأن يشيع ويطبع الحضارة العصرية بطابعه ، فالتاريخ هو خير راع للحضارة وناقل لها ماظل يعمل على خدمة الحياة ، ويحث الناس على نشدان الحياة السامية ، فالتاريخ الموقوف على نشر المآثر يمثل للانسان آثار الأقدمين الرائعة ويبعث فى روحه الأمل

نجـــوى

أنت لحن الفؤاد فى الخفقان ... يانجيّ الضمير فى كل آنِ
رافق القلب ذكرك العذب كالما ... ء رفيقاً لخاطر الظمآنِ
إن هذى الحياة – وهى شؤون – ... ليس فيها سواك لى من شانِ
أنا من أجلك احتملت حياتى ... حين ظلّت فى الحياة مكانى
ربَّ ليل مضى عليك هنيئاً ... بتُّ فيه مؤرق الأشجانِ
طيفك العابث الكذوب يمنيـ ... ـنى فأحيى ليلى سمير الأمانى
وأرى عطفك البعيد قريباً ... فيفيض السرور فى وجدانى
ثم يحنو علىّ طيفك حتى ... تهادى موائق الرضوان
ونحلُّ الوصال ثغراً وضماً ... وحديثاً باللحظ أو باللسان
ثم أصحو فلا أراك حيالى ... فيثور الدفين من أشجانى
أيها الظالم الجميل ترفق ... بأسير معذَّب ولهان

بغداد — ابه عباس

الملتهب والعزم المتأجج لأكمل معنى هـذه الآثار ، ويعمل على رفع مثل الانسانية الأعلى ناقضاً من قلبه التاهى بحب الحاضر والاستسلام لملذاته . أما التاريخ التقليـدى الذى يوحى للانسان احترام الأشياء الفانية ، وحب الآثار الماضية ، فهو خير حقير يحمل أصحابه على الرضا بالحاضر المقوت ، يسكرهم بذلك الماضى الذهبى البعيد ويسكب فى وجودهم القاتم المستكين مخدراً شعرياً يبعثهم على الركود . وهنالك التاريخ الناقد الحاكم ، يعرض الماضى كله على محكمة العقل ويبحث فيه ثم ينفيه ، لأن كل ما كان من حقه أن يزول . — ان مثل هذا التاريخ هو سلاح محمود عند من أثقلت ظهورهم أعباء الماضى الثقيل ، وهم يريدون أن يطرحوها عنهم ويمشوا قُدُماً إلى ما خطت لهم الحياة

ولقد يستحيل التاريخ إلى قوة غاشمة سيئة حين ينفصل فى طريقه عن الحياة ، وحين يود أن يفرض مذهباً خاصاً بعيداً عن مذاهبها ، إنه يصبح رسول موت لا رسول حياة . ينشئ من الانسان مجموعة محشوة علوماً ومعارف . ويقتل فيه القوة التى تسوقه إلى العمل . . . إنه مجموعة أثرية لاحظ فيها لسطر من سطور العمل . صاحبها ضعفت شخصيته ، ونشأ فى تفكيره عالة على غيره ، وتعلم أن التاريخ يجب أن يتلقنه تلقيناً ، وألا يضعه بنفسه . على أن المؤرخ الحقيق الذى ينبغى لمثله أن يسطر التاريخ هو من يقف تجاه المسألة التى يدرسها وقفة الخلى ، ويعمل دائباً على تشييد بناية الحاضر . رجل التجارب والسمو هو الذى يسطر التاريخ

وللتاريخ وجهة ثانية رائعة يستخلصها نيتشه : هى أن التاريخ يكرِّم من التفاؤل ما كان مشفوفاً بالكدر والخطر . ويحترم الميول الفلسفية ويعبد الظفر . يعتقد المؤرخ أنه يرى فى الحركة الانسانية أثراً لا أعلم من أى عقل سام منحدره . يجهد العقل ليدرك أنى بدأت هذه الحركة وأين يجب أن تنتهى ؟ والانسان لم يكن عظيماً إلا حين كان يشن الغارة على القدر ويعلن الحرب على القضاء الأهوج ، ولكنه يفعل ذلك دون أن يخرج من نفسه

ليس التاريخ الحقيق بذلك التاريخ الذى يأتى على كل شىء وإنما هو تاريخ أبناء العبقرية ، وسيأتى عصر تتبدل فيه صورة هذه الحركات التى ألف التاريخ تسجيلها . وسترسم هذه الصورة بصورة أدنى إلى الحقيقة ، فلا يكتب التاريخ بعمومه وخصوصه ؛ وإنما يقصر فيه على رجال العبقرية الذين أثروا فى العالم ؛ هم لا يأتون ويتعاقبون حسب شريعة تاريخية ، ولكنهم يعيشون وراء الزمان ! يمثل وجودهم المتصل المتماسك معبراً ترابطت أجزاؤه واستمكنت عقده فوق الأمواج العاصفة . ولنعم هذا التاريخ الذى يرسم هذه الصورة ويخرج هذا المثل ! وهذه هى جمهورية العباقرة التى تحدث عنها « شوبنهاور » . عبقرى ينادى عبقرياً فى أثناء العصور واهضام الأجيال . ووظيفة التاريخ أن يجمع شتاتهم ، ويدنى بعضهم من بعض ، وأن يهيئ — فى كل مهلة — ولادة جديدة لعبقرى جديد . إذ ليست غاية الانسانية من سيرها ذلك الغرض الذى تزحف اليه وإنما غايتها تتمثل فى النماذج الكاملة التى تخرجها وتنشئها فى الوجود

* * *

الفقرة الثالثة :

ولم يقف الأمر عند تهديم العمارة القديمة وتعاليمها المخطرة . فهو يقصد إلى تشييد عمارة المستقبل على دعائم جديدة ، فتحرى عن عباقرة أحياء يستطيعون ان يذهبوا بالشباب إلى هذه العمارة وإلى هدف جديد ، ينزع عنهم هـذا التفاؤل المخدر ويعرضهم أمام أنفسهم مجردين ، وسعى إلى أن يرى له معلمين يساعدونه على كشف نفسه ويعرفونه بنفسه ؛ من أين نشأت وإلى أين تذهب ؟

وقع — أو شاءت المصادفات — أن يقع نيتشه مصادفة على كتاب شوبنهاور « العالم إرادة وتمثيل » وما كان نيتشه ليقدران هذا الكتاب سيقلب كل أطوار حياته ، ويترك ثورة مستعرة فى فى نفسه ، ثم تشتعل هذه الثورة وتزيدها الأيام ضراماً ، فلا تهدأ إلا بعد أن تأكل نفسها ، وتمد ألسنة شواظها إلى نفسها فتهدأ الثورة بثورتها على ذاتها ... فكان أول ماشغله من هذا الكتاب الجديد شخصية صاحبه المتجلية فى كل حرف من حروفه ؛ وهو الذى يقول : « أنا من قراء شوبنهاور ، ممن يدركون أنهم سيتلون شوبنهاور من فاتحته إلى خاتمته ، وسيصغون إلى كل حرف تهمسه شفتاه . إن ثقتى به ثقة عمياء مازادها كر الأيام إلا ثباتاً »

(يتبع)

خليل هنداوى